معارف
ISSN 1112-7007
EISSN 6804 -2600
المجلد 14/ العدد 1 (جوان 2019): ص.ص685- 699

استراتيجيات التفكيكية عند جاك دريدا

Jacques Derrida's strategies for deconstruction

بوقرومة حكيمة*

BOUGUERROUMA Hakima *

جامعة المسيلة، الجزائر: hakima1200@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/06/09؛ **تاريخ القبول**: 2019/01/15

الملخص:

تعدّ التفكيكية عند "جاك دريدا" آلية لتفتيت النّصوص وإعادة بنائها بطريقة تسير عكس منطلقاتها، حيث قرأ تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية من خلال التركيز على فينومينولوجيا "هوسرل" بشكل خاص، التي ساهمت في بلورة الآليات المعتمدة في التفكيكية، واستفاد منها "دريدا في صياغة مفهوم الاختلاف (Différence) وقامت عنده التفكيكية على جملة من المبادئ، تتمثل في: نقض ميتافيزيقا الحضور، والكتابة والاختلاف والإرجاء، والانتشار والتشتت وغير ذلك.

الكلمات المفتاحية: الاستراتيجية؛ التفكيكية ؛ الإرجاء ؛ الآلية ؛ المنهج

Résumé:

Le déconstructisme de Jacques Derrida est un mécanisme de décomposition et de reconstruction du texte qui va à l'encontre de ses origins, il a lu l'histoire de la philosophie métaphysique en s'intéressant notamment à la Phénoménologie de Husserl, qui a contribué à la cristallisation des mécanismes de déconstruction, La formulation par Dreda du concept de différence et sa déconstruction sur un ensemble de principes, à savoir: le déni de la métaphysique de la présence, de l'écriture et de la différence et du retard, et de la dispersion et ainsi de suite.

* المؤلف المرسل: حكيمة بوقرومة، البريد الالكتروني: hakima1200@gmail.com

*Corresponding author: BOUGUERROUMA Hakima, e-mail: hakima1200@gmail.com

Mots clés: stratégie, déconstructisme, retard, mécanisme, méthode.

Summary:

The deconstructisme of Jacques Derrida is a mechanism for breaking up text and reconstructing it in a way that goes against its origins. He read the history of metaphysical philosophy by focusing on the Husserl Phenomenology in particular, which contributed to the crystallization of the mechanisms adopted in deconstruction, Dreda's formulation of the concept of difference, and his deconstruction on a set of principles, namely: the denial of metaphysics of presence, writing and difference and delay, and spread and dispersion and so on.

Key word: Strategy, déconstructisme, Deferment; mechanism; method.

المقدمة:

يعتبر "جاك دريدا" واحدا من أهم فلاسفة أوروبا المعاصرين، إلى جانب "سارتر" و"ميرلوبونتي" و"ميشال فوكو" و"جاك لاكان"، وغيرهم، ومعظم هؤلاء كانت تقوم فلسفتهم على نقد التفكير الوثوقي، وتعيد النظر في بناء مفهوم الحقيقة، كما عملت على مراجعة مفهوم التاريخ ومركزية الوجود الذاتي. لقد أسهمت جميعها في خلخلة ما يسمى بالمركزية الأوروبية المشيدة على الثقة الكاملة في القيم والعقل والعلم.[1]

وتعد التفكيكية (Deconstructisme)، آلية لتعرية هذه المركزية في صميم مبادئها الميتافيزقية والعقلانية والعرقية، ذلك أن الغرب له وجود وعقلانية فريدة من نوعها، إذ لا ينفعل إلا بذاته، ولا يشعر أنه بحاجة إلى ما هو خارج عن كيانه الخاص.[2]

ولمصطلح التفكيكية مرادف آخر، وهو مصطلح "التقويضية"، وقد أطلقه رائدها الأول "جاك دريدا" في بحوثه، مشيرا إلى القراءة النقدية (المزدوجة) التي أتبعها في مهاجمته للفكر الغربي الماورائي منذ بدايته إلى يومنا هذا [3]، فالتقويض هو التفكيكية، وقد استعمل

(1)- ينظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ترجمة: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، ط2، 2000، ص ص: 24-25.

(2) - ينظر: المرجع نفسه (مقدمة المترجم)، ص 26.

(3) - فيصل الأحمر ونبيل دادوة، الموسوعة الأدبية، الجزء الأول، دار المعرفة، الجزائر، 2009/2008، ص 97.

هذا الأخير على سبيل الترجمة التي قام بها العديد من الباحثين والدارسين في هذا الميدان.

أما "عبد الله الغذامي"، فيستعمل مصطلح "التشريحية"، لأنه يراه أجدر، وأحسن بكثير من مصطلح "التفكيكية" التي قد يُفهم منها الهدم فقط، لا الهدم ثم إعادة البناء.[1]

1- جذور ومصادر النظرية التفكيكية:

لقد استخدم الفلاسفة الإغريق مصطلح "التفكيك" في تحليلهم للمعطيات الرياضية والمنطقية التي تكشف الفكر غير المتماسك، أو المنطق الذي يتظاهر بالاتساق، أو البنية الهندسية غير المحكمة، أو المعادلة التي تضمر تناقضا كامنا فيها. وقد عاد هذا المصطلح الرياضي والمنطقي إلى التواجد بعد حوالي خمسة وعشرين قرنا، في شكل نظرية أدبية ولغوية، وفلسفية، على يد الفيلسوف الفرنسي المعاصر "جاك دريدا"، ولكن قبل"دريدا" يعود التفكيك إلى المزاج الثقافي الفرنسي الذي أفرزه، ثم لفظه بعد ذلك، لأن المزاج الثقافي الفرنسي كان مشكلا من قوى التوحد والتجانس لمدة طويلة، وبما أن التفكيك يقوم في جوهره على رفض المذاهب السابقة، ويخطىء كل المشاريع والتقاليد التي تحجب المعنى وتكبته، فقد اعتبر بديلا عن تلك المذاهب، وبدأ بذلك التفكيك في فرنسا على يد "رولان بارت"، لكن سرعان ما لفظ التفكيك بدافع القوى الموجودة في فرنسا، وذلك عندما اكتشف حقيقته المتمثلة في نسف التوحد وإلغاء التجانس والدعوة إلى التعدد اللانهائي لتفسير النص، هاجر التفكيكيون الجدد، وعلى رأسهم "جاك دريدا" إلى أمريكا المتسمة بالتعددية، حيث رحبت بهم، وأفرزت مدرسة تفكيكية خاصة بها، فاعتبرت بذلك امتدادا للمدرسة الفرنسية وتطويرا لها، فعاد مصطلح التفكيك إلى الظهور كممارسة أدبية، ولغوية، وفلسفية على يد الفيلسوف "جاك دريدا".[2]

والتفكيكية آلية لتفتيت النصوص وإعادة بنائها بطريقة تسير عكس منطلقاتها، ولقد قرأ "دريدا" تاريخ الفلسفة الميتافيزيقية من خلال التركيز على فينومينولوجيا

(1) - عبد الله الغذامي، الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج "إنساني معاصر: مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، النادي الأدبي الثقافي، ط1، 1985، ص 560.

(2) - ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431 هـ/2010 م، ص ص:336-337.

"هوسرل" بشكل خاص، فتبين لنا أن المعرفية التي قام بها هذا الفيلسوف، بكل ما تحمله من دقة وابتعاد عن الفكر المثالي، تخفي افتراضا ميتافيزيقيا يتجسد في الحدس، ويُضمر فكرا وثوقيا ينقلب على صرامة تلك المعرفة نفسها. لقد حاول "دريد" إبراز الخلفية الحدسية لفكر "هوسرل" من خلال بيان الكيفية التي كان يتصور بها فعل الدلالة المنبثق عن العبارة (Expression)، أي عن الصوت (Voix)، فالعبارة وإن كانت إخراجا للمعنى، فإن هذا الإخراج لا يبرح الذات نفسها، فهو موجود أصلا فيها[1]، والمسألة هنا شبيهة إلى حد كبير بمفهوم المتلقي الضمني الذي يُفترض وجوده بالضرورة في أي خطاب ذاتي، على أن صوت الذات هو عبارة الخطاب بحد ذاتها، باعتبار أنها إرادة قاصدة تهب للمعنى بُعدها الروحاني حسب تعبير "هوسرل".[2]

لقد ساهمت فينومينولوجيا "هوسرل" في بلورة الآليات المعتمدة في التفكيكية، فقد استفاد منها "دريدا" في صياغة مفهوم الاختلاف (Différence)، كما استفاد من جملة من الفلاسفة والباحثين، منهم "هايدغر" و"فوكو" و"جيل دولوز".[3]

اعترف "دريدا" أنه استفاد أيضا من "هايدغر" كثيرا، إذ رأى أنه لم يكن في وسعه أن يجعل مشروعه ممكنا لو لا اهتمامه بما يسميه "هايدغر" بـ "المغايرة بين الكائن والكينونة"، أي بين ما هو وجودي وما هو لاهوتي.[4]

ناقش "دريدا" أيضا الاتجاهات الأدبية والمناهج المختلفة، وخاصة التحليل النفسي والبنيوية، ويمثل فصل "القوة والدلالة" أهم فصل من كتابه (الكتابة والاختلاف)، وقد ناقش فيه البنيوية التي اكتسحت جميع مجالات البحث، باعتبارها مغامرة متقدمة في درس اللغة، من حيث زاوية النظر وطبيعة وضع الأسئلة بالنسبة لجميع الموضوعات، ومن بينها "الأدب".[5]

---

(1)- ينظر: جاك دريدا، الصوت والظاهرة، مدخل إلى مسألة العلامة في فينومينولوجيا هوسرل، ترجمة: فتحي إنقزّو، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص 27.

(2) - ينظر: المرجع نفسه، ص 67.

(3) - ينظر: م ن، ص ص: 9-11.

(4) - ينظر: جاك دريدا، مواقع (حوارات)، ترجمة وتقديم: فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، 1988، ص ص: 15-16.

(5) - ينظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، ص 131.

وإن انتقاد البنيوية وجعلها ترتد، رغم كل المظاهر إلى تصور ميتافيزيقي وتجريدي، لم يمنع "دريدا" من القول بضرورة تبني المبدأ البنيوي في ممارساته التفكيكية للنصوص، إلى حد نستطيع أن نقول بأنه « رسم أحيانا للنص والخطاب مظاهر بنيوية وسيميائية وتناصية تكاد تكون واضحة المعالم».[1]

هكذا استطاع "دريدا" رغم انتقاداته للبنيوية أن ينطلق من المبدأ البنيوي والسيميائي ثم المبدأ التناصي، لكي ينتقل بعد ذلك إلى مشارف المبدأ التفكيكي في محاولته لتعريف الخطاب الشفوي والكتابي على السواء.

2- مبادئ التفكيكية عند "جاك دريدا" :

قامت التفكيكية عند "جاك دريدا" على جملة من المبادئ الهامة، والمتمثلة فيما يلي:

أ- نقض ميتافيزيقا الحضور: إن "دريدا" يرفض سرمدية اللوغوس والاحتواء الميتافيزيقي التي تمارس سلطتها على الفكر الغربي، وتجعل فلسفته تتميز بالحضور بفعل العقل، وهي سر أزمة الفكر الغربي الذي يرتكز على بؤرة إشعاع رئيسية مثل (الأصل، الإنسان،...)، ويهمش باقي العناصر، فيقع في حقيقة واهمة[2]، والتي ستصبح محددة للوجود، فكل ما هو أساسي موجود بالضرورة، كما عبر عن ذلك "ديكارت": «أنا أفكر إذن أنا موجود»، فاللغة هي التي تحدد هذا التمييز والواقعية الاستحضارية للشيء، فالحضور إذن أساس المعرفة الحقيقية التي نملكها، وهي نقطة خاطئة بفعل دعوى "مركزية الكلمة"[3]، كما أنّ "دريدا" ينتقد من خلال هذا الطرح فكرة "دي سوسير" التي تمركزت على إعطاء الأهمية للفظ تحت مسمى "الحضور الذاتي للوعي الذاتي الكامل"، حيث محورها في ثنائية الدال والمدلول، وهذا الأخير يعتبره "دريدا" غير ممكن، وكان من تداعيات هذه المسلّمة في الفكر الغربي أن أعطى للكلام أسبقية الوجود تماشيا مع الفكر الفلسفي القديم، وعلى هذا الأساس يقوض الفكر البنيوي، الذي يتمركز حول

(1)- حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، مطبعة أنفو، فاس، المغرب، ط2، 2012/، ص 197.

(2)- ينظر: محمد العشيري، الاتجاهات الأدبية والنقدية الحديثة، دليل القارئ العام، ميريت للنشر والمعلومات، مصر، القاهرة، ط2، 2003، ص 125.

(3)- ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 338.

العقل لتحديد معان ودلالات نهائية للكلمات، وهذا في رأيه من المستحيلات، لأن العلامة تحيل على علامات سابقة ولاحقة، مما يلغي نهائيا حضور المعنى وهويته.[1]

ب- الصوتمركزية والكلممركزية: يرى "دريدا" أن ارتباط الصوت والكلمة بالمركزية المجموعة في عقل الإنسان الأوروبي والنزوع إلى السلطة هي التي تؤدي إلى مفارقة بادية بين الحسي وغير الحسي، فأعطت القيمة للكلمة وهمشت الكتابة، فكان النزوع إلى الكلمة والتركيز على مركزيتها (كلممركزية) تحت مسمى "الدال الأسمى"، ومنتهاها "المدلول الأسمى"، وأن سبب الخذلان المعرفي هو الاهتمام بالبلاغة والاستعارات.

كما تعرض "دريدا" إلى العلاقة بين الفلسفة والأدب، بمعالجته لقضية الاستعارة والمجاز، حيث كانت الفلسفة تعتبر نفسها بأنها متميزة على الأدب، لاعتمادها على اللغة الدقيقة والرصينة والعلمية، بينما يعتمد الأدب على اللغة المجازية، وهذه النظرة قام "دريدا" بنقدها وهدمها، إذ يرى بأن الخطاب الفلسفي في حد ذاته يعتمد على أعلى درجات البلاغة والمجاز، حيث يعتبر أن كل اللغات مجازية بشكل مفروغ منه، وأنها تعمل من خلال الصور المجازية.[2]

ج- الكتابة والاختلاف والإرجاء: هي مبادئ اخترعها "جاك دريدا"، وتؤكد على خرق السكونية القديمة، فالكتابة عند "دريدا" تصبح هي المركز لتسبق النطق وتدخل في حوار سلمي مع اللغة،« والكتابة تغطي فضاء للنقاش بين المخرج والممثل حول الحركات، والموسيقى، والمشاهد التي تصير فوق الخشبة دون الإجراء القهري للأوامر، فينتج عن هذا توافق كلي بين الملفوظ والراكن إلى الانفجار الساكن، كتمهيد لخلق نتائج وابتكار يتحد مع المنتظر وحلقة التأصيل».[3]

ويعتمد "دريدا" على ظاهرة الاختلاف (Différance)، حيث يتلاعب بتركيبها اللفظي، ليمرر فكرته الهادمة لميتافيزيقا الحضور، مما جعل النقاد يتضاربون في جوهرها وأصلها.[4]

---

(1)- ينظر: م ن، ص ص: 338-339.

(2)- ينظر: فيصل الأحمر ونبيل دادوة، الموسوعة الأدبية،ج 1، ص 104.

(3)- فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 340.

(4)- ينظر: رضوان جودت، صدى الحداثة وما بعد الحداثة في زمنها القادم، المركز الثقافي العربي، الدار =

ومن جهة أخرى، نعتبر نحوية "دريدا" المتكونة من فعل الإرجاء وفعل التأجيل، لم تأت عبثا، وإنما كانت مقصودة، ليبرز أن الفرق بين «E» و«A» الفرنسيين لا يتجلى إلا من خلال الكتابة، وبذلك يبرهن على عدم غموض الكتابة ويقوض مقولة وضوح اللفظ وحضوره، كما يشير إلى خطر الكتابة على النطق باعتبارها مستمدة من الفراعنة.[1]

وفي سياق شرح طبيعة الاختلاف، أشار "دريدا" إلى مفهوم الأثر (Trace)، وذلك بما يتركه كل طرف من تلك الثنائيات المذكورة سابقا في الطرف المقابل له من تغيير سالب ومانح في نفس الوقت، وفي هذا الشأن يقول "جاك دريدا": « إن كل عنصر يتأسس انطلاقا من الأثر الذي تتركه فيه العناصر الأخرى في السلسلة أو النسق»[2]، ومن هنا يعتبر مفهوم الأثر مكملا لمفهوم الاختلاف وشارحا لمضامينه، على أنه يمكن ربط العلاقة بين مفهوم الأثر ومصطلح التناص الذي لا شك أن "دريدا" كان يعتقد به دون أن يهتم باستعماله، مع أنه تحدث كثيرا عن العلاقات النصية وتشتت دلالات المفردات المستعملة في الكلام وتأثير رصيدها الدلالي عبر التاريخ الذي يصعب إلغاء أثره في النصوص المكتوبة حديثا.[3]

د- الانتشار أو التشتت: وهي فكرة جوهرية في التفكيك ركز عليها "دريدا" في تقويضه الفكر الأفلاطوني، خصوصا فيما يتصل بمفهوم الكتابة عند "أفلاطون" ونظرية المحاكاة، ويأتي هذا المفهوم لغويا من الانتشار السلالي، أو كأن يبذر المرء بذورا أو ينثرها أو يشتتها، كما أن للفظة علاقة بالتناسل، « أما المصطلح فهو يعني تناثر المعنى وانتشاره بطريقة يصعب ضبطها والتحكم بها، هذا التكاثر ليس بوسع المرء إمساكه وإنما يوحي بنوع من اللعب الحرّ، فهو حركة مستمرة تبعث وتثير الاستقرار والثبات »[4]، ويحمل هذا المصطلح بعدا خاصا عند "دريدا" الذي يركز على فيضان المعنى وتفسخه،

=

البيضاء، المغرب، ط1، 2003، ص 61.

(1)- ينظر: فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، ص 341.

(2)- ينظر: جاك دريدا، في علم الكتابة (مقدمة المترجم)، ترجمة: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص209.

(3)- ينظر: حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، ص 209.

(4)- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، د.ت، ص ص: 132-1 ينظر: جاك دريدا، في علم الكتابة (مقدمة المترجم أنور مغيث)، ترجمة: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص24.

وفي كتابته الذي يحمل عنوان (الانتشار) يعالج التصدير والتقديم، ليجدها انتشرت سلاليا في المقدمات والتصديرات.

وإذا نظرنا من زاوية نظر "دريدا"، في ارتباطها بمدلولات التشتت والبعثرة (Dissemination)، والتكرار (Itération)، نجد أن الذات بمجرد أن تنخرط في الكتابة، فإنها لا تضمن السيطرة الكاملة على معجمها، ولا على أبعاد ورصيد مفرداتها التاريخية، لذلك فقد يكون كلام الذات دالا أكثر، مما كانت الذات تفكر فيه[1]، ومن طبيعة كتابة الذات أنها تلجأ عن وعي أو لا وعي إلى تشتيت خطابها عبر الصلات المعقدة بين الأساليب والأفكار والنصوص والإحالات التراثية والثقافية المتعددة، عندئذ تصبح مهمة المفكك هي أن يحاول الوصول إلى النسق الظاهر، وبعد ذلك يبدأ في التفكيك بناء على تناقضات وتعارضات المكونات النصية ذاتها. وإن الهدف الأساسي من هذه البعثرة هو إظهار الطبيعة المتشتتة للنص.[2]

وهناك مصطلح قريب من مصطلح التفكيك، وهو مصطلح الهدم (Destruction)، الذي وضعه "مارتان هايدكر" (Martin Heidegger)، ويعني النقض المنهجي للبداهات التي تتماهى مع الأصول[3]. ويمكن الحديث هنا أيضا عن الثوابت والمتغيرات، وعن مفهومي الطبيعة والمكمل الذين جعلهما "دريدا" محورا أساسيا في تفكيكه لمعظم النصوص الفلسفية والأدبية التي تناولها بالتحليل.[4]

والمعلوم أن الفلسفات ذات الأساس الميتافيزيقي كانت تعتبر الطرف الثاني من الثنائيات الضدية مكملا أو متغيرا، بالقياس إلى الطرف الأول من تلك الثنائيات، ومن الناحية المنطقية يبدو أن وجود المكمل شرط لوجود كل ما هو طبيعي،« ولا يمكن للطبيعي أن يبرز أو يثبت حضوره إلا بمكمله »[5]، والتفكيكية تحاول أن تجعل إلغاء

(1)- ينظر: جاك دريدا، في علم الكتابة (مقدمة المترجم أنور مغيث)، ترجمة: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005، ص24.

(2)- ينظر: حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، ص ص: 206-207.

(3)- ينظر: جاك دريدا، الصوت والظاهرة، ص 19.

(4)- ينظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف،(مقدمة المترجم)، ص 12.

(5)- حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، ص 205.

التمييز المطلق بين تلك الثنائيات وسيلة لإضفاء المشروعية على نوع من الالتباس بينها وتشتيت دلالاتها بالنسبة لسُلّم القيم الإنسانية.

إن مصطلح التفكيك يتكون من بادئة تعني النفي، ومصدر معناه البناء، ولكن المعنى العام للتفكيك هو التقويض، ولذلك قيل بأن استخدام "دريدا" للكلمة يدل على الهدم والبناء معا دون الحاجة إلى تغليب طرف على آخر، وإذا كان التفكيك يُنقض ويقيم جديدا، فإن ما يقيمه قابل هو أيضا للهدم.[1]

3- أهداف التفكيكية واستراتيجياتها عند "جاك دريدا":

يرى "جاك دريدا" أن التفكيك لا يهدف إلى فحص المعرفة وضبط الأحكام، كما هو الحال في فلسفة "هوسرل"، وإنما يريد من خلال إبراز المعضلة أن ينزع عن مسلّمات الميتافيزيقا كل مزاعمها في السيطرة والتسلط، وقد تساءل "أنور مغيث" مترجم كتاب (في علم الكتابة) عن الغاية التي نذر لها "دريدا" معظم أعماله، محاولا أن يجد للتفكيك مخرجا من الورطة المعرفية التي هو فيها، فقال: « وبعد ما الهدف من التفكيك إذن؟ وماذا بعد؟ سؤالان يبدوان متشابهين، ولكن الفارق بينهما كبير، إذ يعني السؤال الأول أن التفكيك تكمن غايته في داخله، أما الثاني فيعني أن التفكيك مجرد مرحلة تحتاج إلى مكمل...»[2] ، حيث يعتبر المترجم أن بعض الانتقادات الموجهة للتفكيك يمكن أن تكون مكملات، لكي تصبح التفكيكية سليمة معافاة من النقص المعرفي الذي يهددها باعتبارها فلسفة نقدية.

فالانتقاد الأول وجهه الفيلسوف الإيطالي "فاتيمو"، الذي يرى أن أي خطاب فلسفي يلزم أن يكون اقتراحه هو إعادة بناء تفسيرية لمجموع التراث الذي يتناوله بالتحليل، بينما التفكيك يقف عند هدم كامل الهدم الفلسفي الميتافيزيقي الموروث، وهذا يعني المخاطرة بالسقوط في خرافة اسمها "الموضوعية". إن ملاحظة "فاتيمو" « في الواقع ليست تكملة إنقاذية للتفكيكية، ولكنها تبيان لفراغ مهول في فهم حال المشروع التفكيكي من أي بديل نقدي أو فلسفي جديد».[3]

(1)- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(2)- جاك دريدا، في علم الكتابة (مقدمة المترجم أنور مغيث)،ص ص: 46 و50.

(3)- حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، ص 217.

وقد سار "جادامير" في نفس الاتجاه الانتقادي حين اعتبر التفكيك بكامله مجرد مرحلة تقنية تحليلية يعوزها الرسوّ على نهاية النتائج الملموسة، أي العودة إلى الحاجة الضرورية للتأويل بمعناه المكتمل الذي يرسو في نهاية التحليل على اختيار مدلولات مقترحة للنص.[1]

إن ما حصل للفلسفة في كتابات "دريدا"، انعكس على ما قام به في مجال الأدب، فالهدف الأساسي لا يمكن أن يكون إنجازا لفهم جديد للنصوص، أو تأويلات متماسكة، بل تشويش مسارات الفهم والبحث بكل الحيل والوسائل التعبيرية عن ثغرات في النصوص يمكن النفاذ منها إلى صلبها للعمل على هدمها.

إن "دريدا" يعتقد أن التفكيكية ينبغي أن تتبع استراتيجية خاصة في نقدها للثنائيات الميتافيزيقية بأن تقيم في أفقها المنغلق محاولة لخلخلتها من الداخل، وعليها أن تتمرس بداخل النصوص القائمة في بنيتها على الثنائيات، تفاديا للنتائج الكارثية التي تترتب عن وجودها المفاجئ خارج المنظومات الثنائية الميتافيزيقية للمركزية الأوروبية، إذ ينبغي القيام تدريجيا بقلب قيم تلك الثنائيات وجعل الكتابة مثلا تحتل موقع الكلام، والظاهر يحتل مكان الباطن والدال مكان المدلول...، أي بجعل المركزي هامشي والهامشي مركزي. والاشتغال النصي داخل هذه الاستراتيجية "المغرضة" ملحوظ جدا في اقتحام "دريدا" رسالة "روسو" في أصل اللغات، بحيث يقع شبه التباس بين "روسو" وخطاب "دريدا"، لأن "دريدا" يتمظهر بأنه يوافق على كل أفكار "روسو"، لكنه فجأة يتبين للقارئ أنه أسس منذ البداية لهدمها من الداخل.[2]

يرى "جون سيرل" أن التفكيك يعرف بأنه مجموعة من الاستراتيجيات التي تعمل على تقويض ميولنا النابعة من مركزية اللوغوس، أولها: حصر مجمل الثنائيات المتعارضة التي شكلت جوهر التفكير الغربي، مثل: (الكلام والكتابة)، (الذكر والأنثى)، (الحقيقة والخيال)،...علما بأن الطرف الأول (الأيمن) تعطى له الحظوة دائما في هذا التفكير، فهو في منزلة أسمى من منزلة الطرف الثاني (الأيسر) الذي يعتبر مجرد تعقيد أو نفي أو تجلّ للطرف الأول، ومن ثم سيكون الهدف الأساسي من التفكيك هو العمل على

(1)- ينظر: جاك دريدا، في علم الكتابة (مقدمة المترجم أنور مغيث)، ص ص: 50-51.

(2)- ينظر: جاك دريدا، الكتابة والاختلاف،(مقدمة المترجم)، ص ص: 28-29.

تقويض هذه المتعارضات بغاية تحطيم مركزية اللوغوس، أما الاستراتيجية الثانية، فمهمتها اكتشاف الكلمات المفاتيح التي تكون لها خاصية التعارض مع المدلولات المباشرة للنص، بحيث تعمل على تقويضها، ثم تأتي الاستراتيجية الثالثة التي تمثل الاهتمام بهوامش النص وبعض الاستعارات الدالة أيضا على ما يخون مدلولات النص[1]. ومن خلال ذلك يستنتج "سيرل" أن التفكيك مجرد ممارسة لمجموعة من الحيل اللغوية والمنطقية التي لا تصل بنا إلا إلى حصيلة من البلاغة الفارغة.[2]

إن التفكيكية ساهمت في قراءة نصوص أدبية متعددة، باستراتيجياتها وإجراءاتها المختلفة، واقتحمت عالم النقد الأدبي في مناطق متعددة من العالم، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

4- تطبيق التفكيكية على الخطابات المتنوعة:

اعتُبرت التفكيكية ممارسة نقدية، رغم أن موقعها الطبيعي هو المجال الفلسفي، فقد عالجت الأعمال الأدبية، مما دفع بها نحو ميدان الدراسات الأدبية، خاصة وأن "دريدا" تناول أعمال بعض الأدباء المرموقين، أمثال: "مالارميه"، و"باتاي"، و"جنيه"، و"كافكا".[3]

وفي الإنتاج المسرحي، توجه تطبيق التفكيكية عند "جاك دريدا" إلى أعمال الكاتب المسرحي "آرتو" على الخصوص، وذلك في دراسة عنوانها: (مسرح القسوة وحدود التمثيل)، ويعود سبب اهتمام "دريدا" بأعمال هذا الكاتب إلى خلوها من تصورات واضحة للوعي وتكسيرها لقواعد التمثيل والتخييل، وقد اكتشف أن وراء طرد سلطة المؤلف والمخرج بمركزيتهما الميتافيزيقية عجزا خفيا عن القيام بهذا الفعل الإقصائي بصورة قطعية.[4]

وعندما قرأ "دريدا" خطاب فلسفة اللغة عند "روسو" انتبه إلى أهمية الملحقات أو المكملات في الثنائيات التي اعتمدتها فلسفته والفلسفات العربية عموما، فحاول

(1)- ينظر: المرجع نفسه، ص 43.
(2)- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
(3)- ينظر: المرجع نفسه، ص 30.
(4)- ينظر: المرجع نفسه، ص 36.

إقناع المتلقي بأن جميع مكملات تلك الثنائيات ذات فعالية قصوى، بخلاف ما كانت تراه الفلسفات المثالية والعقلانية.

تقوم منهجية "دريدا" في قراءة الأعمال الأدبية التي اختارها على رصد المكونات المتباينة التي لا يكون الكاتب على وعي تام بوجود علاقات قائمة بينها، مما يشير إلى ضرورة التمييز بين ما يخضع لمراقبة المبدع وما ينفلت من هذه المراقبة، ولهذا يرى "دريدا" أن هذا الجزء المنفلت يكون غالبا أكثر دلالة مما هو خاضع لمراقبة الكاتب، وإن اكتشاف المنفلت وتأويله هو المهمة الصعبة بالنسبة للناقد التفكيكي[1]، وهذا له علاقة بالتحليل النفسي الفرويدي الذي يعتبر عملية الإبداع تعبير عن اللاوعي، وهكذا يكون الهامش الذي أشار إليه "جاك دريدا" مخالفا لما يصرح به الكاتب في خطابه.

وقد نجد في كتابات "ميشال فوكو" (Michel Foucault)، ما يمثل البوادر التي لا شك أن "دريدا" أخذ منها تصوراته التشتيتية، فحينما تحدث "فوكو" عن طبيعة بنية النص الأدبي وغير الأدبي شدد بالتحديد على الطابع المتعدد لتكوين البنى النصية، بحيث يصعب أن نخرج من عالم النص بما يمثل وحدة دلالية مستقرة وموثوق بها، « فحدود كتاب ما ليست أبدا واضحة بما فيه الكفاية، وغير متميزة بدقة، فخلف العنوان، والأسطر الأولى والكلمات الأخيرة، وخلف بنيته الداخلية...ثمة منظومة من الإحالات إلى كتب ونصوص وجمل أخرى، مما يجعله ككتاب مجرد عقدة داخل شبكة أو مجرد جزء من كل...و مع أن للكتاب هيئة شيء في قبضة اليد...فإن وحدته متغيرة ونسبية، ما إن تفحصها فحصا نقديا حتى تفقد بداهتها، فهي وحدة لا تطابق ذاتها، ولا تنشأ إلا داخل حقل خطابات متشابكة».[2]

غير أن التفكيك يتجاوز درجة التبعثر التي عبر عنها "فوكو" في أعماله الفلسفية، يقول: وكأن "دريدا" يقول لجميع الأدباء والفلاسفة: « إنكم تلعبون بشكل عابث ونحن نعبث بلعبكم وكلانا لا يربح إلا عبثه».[3]

وفي تحديد ماهية الشعر، يتّبع "دريدا" طريقة غريبة، وذلك في مقال له بعنوان (ما

(1)- voir : Jacques Derrida, De la grammatologie, éditions minuit, paris, 1967; p 227.
(2)- ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1986، ص23.
(3)- حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، ص 241.

هو الشعر) نشره سنة 1988، حيث لجأ إلى الاستعارة لتمثيل حالة إبداع الشعر الاستثنائية التي يتداخل فيها الذاتي بالخارجي، والقلق بالأمل في الخروج من المأزق، وقد عبر عن هذا الوضع بـ "القنفذ" بمواصفاته العادية، كائن ملقى به في الطريق وحيد ومكور على نفسه يواجه إمكانية ملاقاة حتفه في أية لحظة، إنه يمثل اختلال حالة الذات المنغلقة على نفسها والمتوجسة في ذات الوقت من مخاطر الخارج، وفي هذا الوضع يكون الإحساس بالموت موقظا لاندفاعات حركية متوترة وقلقة تعبر في جميع الأحوال عن حضور ما للكينونة دون أن تكون قادرة على إنقاذ هذه الكينونة من الخطر القائم.[1]

هكذا يلجأ "دريدا" إلى "القنفذ" لتمثيل طبيعة القول الشعري بشكل استعاري مضطرب الدلالة، رغم أنه ليس لهذا الحيوان أية علاقة بالشعر، « لأن الإجابة عن ماهية الشعر في هذه الاستعارة تجعل أبواب التأويلات والاحتمالات الدلالية مفتوحة على مصراعيها».[2] إن "دريدا" يتعمّد تشويش البحث في ماهية الشعر باستخدام الاستعارة في مجال يتطلب الحجاج والتحليل النصي المنطقي، كما يستخدم تمثيلا غير ملائم ويعي أنه كذلك، ومع ذلك يصرّ على التأكيد أن عدم الملائمة نفسه هو أحد أهم نتائج عمله، مما يعيدنا إلى دوامة البناء والهدم والتشتيت في المسار التفكيكي المناور في ميدان البحث في العلوم الإنسانية.

إن التفكيكية لم تسلم من النقد والمآخذ، فهي على حد تعبير "ليتش" تخرب كل شيء في التقاليد تقريبا وشكلا في الأفكار الموروثة عن العلامة واللغة والسياق والمؤلف والقارئ ودور التاريخ وعملية التفسير وأشكال الكتابة النقدي.[3]

ويقال إن المؤسسة الأدبية قد تحولت مع التفكيكية إلى كرنفال لا سبيل إلى التمييز فيه بين الشيء وضده، كرنفال تسود فيه العشوائية والاستفزازية والمزاج الذاتي، وإن الدارس منا وهو يتصفح مبادئ وأسس ومصطلحات التفكيكية سوف يجد

(1)- ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها، نقلا عن:
www.jacquesderrida.com Jacques Derrida, che cos'è la poesia? Poesia , 1, 11, novembre,1988.

(2)- حميد لحمداني، الفكر النقدي الأدبي المعاصر، مناهج ونظريات ومواقف، ص 214.

(3)- ينظر: فيصل الأحمر ونبيل دادوة، الموسوعة الأدبية، ج 1، ص ص: 108-109.

نفسه يدور في حلقة مفرغة لا سبيل فيها إلى الفهم والاستيعاب، فيحس نفسه كأنه في عالم ما وراء الطبيعة، عالم ميتافيزيقي بالدرجة الأولى.[1]

ورغم الانتقادات الموجهة للتفكيكية، إلا أنها تمتلك صفات إيجابية عديدة، حيث عملت على زعزعة التصورات التقليدية للكاتب والعمل المكتوب، فأعطتها بعدا جديدا، فقد قتلت الكاتب وأعطت السلطة للنص، وجاءت بمفهوم التناص كعامل جديد للتاريخ والتقاليد الفكرية، وجاءت بشيء جديد يعود على النص بالإيجابية « فتجعله صورة متعددة الألوان تتلألأ في خضم وأمام العيون المتلهفة المتعطشة للحصول على الجمال، عيون ترى النص أمامها وكأنه البحر يزخر بثرواته من أصداف ومرجان ولؤلؤ».[2]

ومما سبق، يمكننا الوصول إلى جملة من النتائج الهامة، والمتمثلة في ما يلي:

- أن التفكيكية في حقيقتها لم تكن إلا وجها آخر من أوجه التفكير الغربي الذي لا يكاد يقف على رأي آخر، دون أن يلغي تماما المرتكزات الأساسية لهذا الفكر، وإن المدرسة التفكيكية لم تكن سوى تطويرا لمبادئ البنيوية والسيميائيات.

- التفكيكية هي استراتيجية ترتكز على عدم ثبات المعنى، من خلال التناقضات الداخلية للنص ونقاط الإلهام التي ينطوي عليها.

- ومن جهة أخرى، تفتح التفكيكية المجال الرحب لاختلاف التفسيرات، وتؤكد استعصاء الوقوع على معنى محدد للعمل، فيصبح النص مركبا من عناصر تخالف العناصر التي وضعها مبدعه في البداية.

- إن فكرة الاختلاف أساسية في التصور التفكيكي، وهي تهدم تراكيب الكتابة مع غيرها من المستويات، وهي بهذا المفهوم نشاط قراءة يبقى مرتبطا بقوة النصوص واستجوابها.

- لقد وجد هذا التيار أنصارا له في الفكر العربي، يمارسونه في الفكر الفلسفي

(1)- ينظر: المرجع نفسه، ص 109.

(2)- ينظر: المرجع نفسه، ص 108.

والأدبي، بغية خلخلة المفاهيم القارة، ووضعها موضع التساؤل، تنشيطا لحركة التحولات في الفكر الحديث وإثارة التساؤلات حول ما يطفح فيه من يقينيات جاهزة ، ومن الرواد العرب في هذا المجال، نذكر: "علي حرب"، "عبد الله الغذامي"، "مصطفى ناصف". وكما أن مشهد التفكيك في الغرب يجعل القوائم المشتركة ضعيفة، فإن مشهد التفكيك العربي يظل بدوره مفككا.